IUGJHR
Vol 24, No1, 2016, pp 1-18

ISSN 2410-3179

مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية

عمارة القلاع في مملكة بيت المقدس الصليبية "قلعة بلدوين نموذجاً"

د. شامخ زكريا علاونة[1،*]، د. سعيد عبد الله البيشاوي[1]

[1]قسم التاريخ، كلية التربية، جامعة القدس المفتوحة، فرع رام الله والبيرة التعليمي، فلسطين

تاريخ الإرسال (2015/02/05)، تاريخ قبول النشر (2015/06/02)

ملخص البحث

يتناول هذا البحث دراسة قلعة البردويل والتي تقع على طريق نابلس– القدس، وموقعها الجغرافي، وسبب تسميتها بهذا الاسم، كما يناقش التبعية الإدارية للقلعة، وتأريخ بناء القلعة من قبل الملك الصليبي بلدوين الأول، ومقارنها مع قلاع أخرى من حيث تخطيطها وعناصرها المعمارية خاصةٍ في المناطق المجاورة من المملكة الصليبية، كما يتطرق البحث إلى نمط الحياة الاجتماعية والاقتصادية داخل القلعة والتي كانت تمثل نمط الحياة الريفية والعسكرية في آن واحد، فضلاً عن معالجته لدور القلاع من الناحية التاريخية والعسكرية خاصة في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي للسيطرة على بلاد الشام، كما تم التطرق إلى وصف عناصر القلعة المعمارية المتمثلة بالأبواب والشبابيك والعقود والسقاطات وتقنيات ومواد البناء المستخدمة فيها والتي تتمثل في الحجارة وطريقة تشذيبها والكلس والتراب.

الكلمات المفتاحية: عمارة القلاع، مملكة بيت المقدس الصليبية، قلعة بلدوين.

Castles construction in the Crusader Kingdom of Jerusalem "Baldwin Castle model"

Abstract

This research deals with Bardawil Castle, on the Nablus road- Jerusalem, and its geographical location, and the reason for establishing this, also discusses the administrative subordination of the castle, and the date of construction of the castle by King Crusader Baldwin I, and Comparison with other castles in terms of planning, especially in areas and elements of architecture neighbors of the Crusader Kingdom, also deals with research to social and economic life style inside the castle, which used to represent rural and military lifestyle at the same time, as well as the handling of the role of the castles of historical and military terms, especially in the period of the Frankish-Muslim conflict for control of the Levant, has also been addressed architectural description of the castle doors and windows, contracts and ratchets, techniques and building materials used, and that is the way stones and trimmed, lime and earth element.

Keywords: Castles Construction, The Crusader Kingdom of Jerusalem, Baldwin Castle.

[*] البريد الالكتروني للباحث المرسل: salawna@qou.edu

المقدمة:

تُعد القلاع التي أنشأها الصليبيون في بلاد الشام بشكل عام نموذجاً بارزاً للعمارة الصليبية، وهي شاهد على المفهوم الاستراتيجي والاستعماري التي قامت القلاع من أجله؛ إذ اتسمت تلك المرحلة التاريخية التي شهدت بناء القلاع بالطابع الحربي، وذلك نظراً لاستمرارية الصراع الصليبي الإسلامي، وعليه فإن طبيعة تلك المرحلة حددت تطور تلك العمارة العسكرية حسب حاجات كل إقطاعية أو مدينة أو مستوطنة في مملكة بيت المقدس الصليبية.

تم اختيار أماكن القلاع ومواقعها في غاية الدقة؛ بحيث شكلت ركيزة أساسية للدفاع عن الاقطاعيات والمدن والقرى والمستوطنات الصليبية، وقد شيدت على قمم الجبال أولاً وعلى ممرات الطرق التجارية الواصلة بين القرى والمستوطنات ثانياً وعلى منافذ الأودية ثالثاً؛ ورابعاً تموضعت في أماكن حصينة بشكل عام، بحيث يسمح للفلاحين والمزارعين الالتجاء إليها بسرعة كبيرة عند الحاجة. وعند تعرض المنطقة لغارات مفاجئة، وهناك إمكانية لصمود القلعة في حال تم محاصرتها لفترة طويلة؛ وكان ذلك يتم من خلال تزويدها وشحنها بالجنود والفرسان وكافة المنشآت اللازمة، كالفرن والطاحونة والمياه وغيرها من المستلزمات التي تحتاجها القلعة للصمود أطول فترة ممكنة.

أسباب اختيار البحث:

وقع اختيارنا على قلعة بلدوين لتكون هدفاً لهذا البحث؛ لأنها تمثل إرثاً حضارياً باعتبارها شاهداً مادياً على مرحلة الصراع الصليبي الإسلامي في المشرق بشكل عام، وفي فلسطين بشكل خاص، أما السبب الثاني فهو تعرض برج البردويل للتلف والإهمال، لا سيما في جوانبه المعمارية بسبب الإهمال البشري والعوامل الطبيعية على مر العصور، أما السبب الثالث فهو أن القلعة موضوع البحث لم يتم التطرق إليها بشكل علمي دقيق؛ من أجل وضع تصورات لكيفية صيانة القلعة وترميمها.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في عدة نواحٍ منها التاريخية؛ والتي حصلنا عليها من خلال أقوال الرحالة والباحثين الأجانب حول القلعة، ولا سيما في الجانب المعماري منها حيث تحتوي القلعة على منشآت معمارية غاية في الاتقان والبناء والتخطيط، فضلاً عن كونها من القلاع القليلة الباقية في وسط فلسطين.

منهجية البحث:

تم اتباع المنهجية التاريخية في وصف عناصر قلعة بلدوين المعمارية وتحليلها، حيث تم جمع المصادر والمراجع التاريخية التي تتناول موضوع البحث كافة، والتي تمثلت غالبيتها في المراجع الأجنبية وما تضمنته تلك المراجع والدراسات من معلومات عن القلعة التاريخية، وتم مقارنة مخطط القلعة بمخططات أخرى لقلاع تعود الى الفترة التاريخية نفسها، وتم تحليل العناصر المعمارية في البحث بناءً على عملية المسح والدراسة الميدانية للقلعة، كما تم تزويد البحث بصور ومخططات متعددة لإثرائه.

لقد تم استخدام المنهج الوصفي من خلال عدة زيارات ميدانية لموقع القلعة، حيث تم تحديد العناصر المعمارية التي تتكون منها القلعة، حيث تم مسح مسار الأسوار الخارجية التي تحيط بالقلعة من الجهات الأربعة، وكذلك تحديد موقع مدخل البوابة الرئيسة للقلعة، ومن ثم دراسة الأجزاء الداخلية بما فيها البابورية والاسطبلات والأبراج وأماكن تخزين الحبوب والأماكن التي كانت تعتبر مكان سكن للسيد الاقطاعي للفلاحين من خلال الطرقات التي تفصل فيما بينها، ومن خلال مساحتها وعقودها وجدرانها وتقنية البناء المستخدمة فيها، وبالتالي فقد ساعد المسح الأثري الميداني الباحثين على تحليل العناصر المعمارية للقلعة ومواد وتقنيات البناء فيها.

الفصل الاول: الموقع والتسمية والتبعية الإدارية

القلعة لغةً: مفردها قلعة بتحريك القاف واللام والعين، وجمعها قلاع وقلوع (ابن منظور، 290). أما القلعة اصطلاحاً: هي الأبنية المحصنة ذات الأسوار والأبراج الدفاعية وغالباً ما تكون على قمم الجبال أو التلال المشرفة على الممرات والطرق بين الجبال Philip. W. Gotez, (1990:936) كما أطلق على القلعة عدة تسميات وبلغات مختلفة؛ فقد عرفت في بلاد الأندلس باسم حصن "Hisin" ومعاقل "Maquel" (MONES, Hussen, 1957:79) وقلعة وقصبة ولغاية الآن يوجد أسماء مدن وحصون احتفظت بأسمائها العربية مثل مدينة (القلعة الملكية (Alcala Real) (Manuel, 1992:263) كما استخدمت باسم قسطل (شراب، 2000: 605) وهي اسم قرية القسطل وهي تحريف للكلمة الانجليزية (Castillo) وهي بمعنى قلعة وكذلك عرفت باللغة اللاتينية Castllum، (Malpica,1996:9) التي أصحبت تعرف باللغة الإنجليزية باسم (Castle) وكذلك (Fortress) بمعنى تحصينات أو حصون (Malpica, 1996:9).

الموقع الجغرافي لقلعة بلدوين:

تقع قلعة بلدوين على طريق القدس– نابلس؛ على التلة الجنوبية من وادي الحرامية (Conder, 1881:306) وادي عيون الحرامية حيث تشرف على عدة قرى فمن الجهة الشرقية قرية سلواد وهي بلدة في الجهة الشمالية الشرقية من رام الله، تبعد خمسة أكيال شرقي طريق القدس– نابلس(شراب، 2000: 451) وإلى الجنوب الغربي قرية عين يبرود (الدباغ، 1988: 337) ومن الجهة الجنوبية قرية يبرود في الجهة الشمالية من مدينة رام الله (شراب، 2000: 730). ومن الجهة الشمالية قرية المزرعة و تقع إلى الشمال الشرقي من رام الله وأقرب قرية لها سلواد(الدباغ، 1988: 296). لقد شيدت القلعة من الناحية الجغرافية على منطقة تشرف على قمم الجبال وصولاً إلى جبال نابلس من الناحية الشمالية وجبال القدس من الناحية الجنوبية، وهي ترتفع عن مستوى سطح البحر 800م (Denys, 2000:30)، ذكرت بعض الدراسات أن القلعة توجد على حافة الجبل، أو المرتفع الجنوبي للوادي الملعون Vallas de Curse (Meron, 1970:273)، وأطلق عليه اسم آخر (Vally of Running بمعنى وادي الهرب أو الهروب) (Meron, 1970:273).

التسمية:

ذكرت المصادر التاريخية القلعة باسم برج أو قلعة بردويل، ومن الواضح أن اللفظة تحريف لاسم بلدوين I Baldwin الأول،(الشارتري، 2001: 165) وهو ملك مملكة بيت المقدس اللاتينية، والذي عرف عنه تاريخياً أنه أول من قام ببناء قلاع صليبية ذات أهمية استراتيجية عسكرية، أُعتمد عليها كنقاط دفاعية أمامية للدفاع عن مملكته والإقطاعات التابعة لها (William of Tyre,1943 :682). حكم الملك بلدوين الأول بين سنتي (1100– 1118)(الشارتري، 2001: 165) حيث أنشأ عدة حصون في فلسطين بشكل خاص وبلاد الشام بشكل عام ولعبت تلك القلاع دور الهجوم بدلاً من الدفاع (الفيتري، 1998: 46) ومن الجدير بالذكر أن هناك عدة قلاع أطلق عليها اسم برج أو قلعة بلدوين أو بردويل أو بردوني، حيث نجد برج بردويل في قرية حلحول وهي بلدة كنعانية بمعنى ارتجاف، تقع على الكيلو 30 من طريق القدس الخليل (شراب، 2000: 297) وقلعة بردويل موضوع البحث، وقلعة الشوبك التي شيدها أيضاً الملك ذاته، وأطلق عليها اسم (مونتريال) Monte Real بمعنى الجبل الملكي كترجمة حرفية وإنما متعارف عليها القلعة الملكية. وقلعة بلدويل في وادي السير(Conder, 1881:90).

تبعية القلعة من الناحية الإدارية:

استولى الصليبيون على بيت المقدس خلال الحملة الصليبية الأولى عام 1099م (عاشور، 1975: 234) فضلاً عن مناطق أخرى في بلاد الشام وفلسطين، (عاشور، 1975: 234) ونتيجة لذلك تم تأسيس ممالك وإقطاعيات من ضمنها مملكة بيت المقدس اللاتينية في العام

ذاته، (Jean, 19979:124) والتي كانت تضم إقطاعية نابلس بين مملكة بيت المقدس جنوباً وإمارة الجليل في الشمال ومملكة الكرك وقلعة الشوبك في الشرق (Jean,1979:124).

وفيما يتعلق بمملكة بيت المقدس كان لا بد من تركيز حدودها وتقويتها عن طريق بناء شبكة قلاع وأبراج حدودية للدفاع عن أراضيها، (Jean,1979:124) حيث بدأ التفكير بإنشاء قلاع وحصون ريفية (David,2004:48) (ومستوطنات زراعية على أطراف المملكة، وكان من بينها قلعة بلدوين في الجهة الشمالية على طريق نابلس –القدس والتي غدت فيما بعد إقطاعية عرفت بإقطاعية نابلس (البيشاوي، 2014: 68) منذ عام 1108م عندما منحها الملك بلدوين الأول لأسرة ميللي (Richard ,154).

كان أهم عنصر لاستمرار المستوطنات الزراعية التي تأسست في مملكة بيت المقدس اللاتينية، يتمثل في إقامة القلاع في كل مستوطنة (رنسيمان، 196: 628) ففي شمال المملكة أقيمت مستوطنة البيرة شمال القدس مباشرة بعد احتلال الصليبيين للمدينة، (William, 1943:252) وقد امتدت أراضي المستوطنة إلى قرى شمال مدينة البيرة حالياً مثل قرى سلواد ويبرود والطيبة وسنجل وجفنا وبيرزيت، حيث ارتبط العمل بالأراضي الزراعية من البيرة حتى يبرود وسلواد وسنجل وجفنا بسلسلة أبراج وقلاع بشكل متتالٍ ومتناظر ابتداء من برج بتين الصليبي وبرج جفنا وبرج قرية الطيبة وكذلك برج بلدوين أو قلعة بلدوين، فهي تشكل مثلثاً شمالي مدينة البيرة، فقلعة بلدوين إدارياً ومن ناحية تقسيم الأراضي، فقد كانت تابعة لمستوطنة البيرة التي كانت مستوطنة لرجال الدين اللاتين، حيث كانت الأراضي، وتحصيل الضرائب من اختصاصها وكان يطلق عليها اسم Mangna Mahumeria (ثيودويش، 2003: 124).

لقد بلغت القرى والمزارع التابعة للملكة بيت المقدس الصليبية تقريبا 21 قرية ومزرعة؛ (Geneviene, 1984: 86) والتي أقطعها الأمير غودفري البويوني وهو أبن الكونت يوستاس ينتمي إلى عائله عريقة النسب وهي من عائلات الاقطاعية في أوروبا (البيشاوي، 2014: 58) إلى كنيسة القيامة (Holy Sepulchre)، وأطلق عليها اسم (Mahomeria) (Bagatti, 1971:194) ومن ضمنها قرية يبرود والأراضي الزراعية الخصبة التي تحيط بقلعة بلدوين، ومن بين القرى الأخرى التي كانت تابعة لتلك المستوطنة قرية الطيبة وتقع إلى الشمال الشرقي من رام الله وتبعد عنها 15كم، بناها الكنعانيون ودعوها باسم عوفرة باسم غوال وفي العهد الروماني سميت Aphairema وذكرت عند المؤرخين الافرنج باسم Afruom كما عرفت باسم آخر وهو أفرام. والتي بني فيها قلعة أو برج (شراب، 2000:510) وكذلك قرية بتين علة شكل تثنية بيت، موقعا على ثلاثة أكيال من البيرة في الشمال الشرقي من رام الله، ترتفع عن مستوى سطح البحر 894م وهي تقوم على بقعة لوز بمعنى شجرة اللوز الكنعانية، ودعيت باسم بيت ايل بمعنى بيت الإله وكانت محل اقامة ملوك الكنعانيين وعرفت في العهد الروماني باسم بتين وعرفها الصليبيون بهذا الاسم (شراب، 2000: 208) التي يوجد بها أيضاً برج صليبي، وقرية جفنا وتقع إلى الشمال من رام الله على بعد أكيال وتعني حسب اللغة الكنعانية المتعفن وفي أيام الرومان عرفت باسم جفنه (شراب، 2000: 260)التي تحتوى على برج صليبي؛ لذلك كانت تلك الأبراج تشكل عنصراً دفاعياً متميزاً للصليبيين سكان تلك القرى الزراعية حيث كان الصليبيون يعملون في الزراعة لصالح الكنيسة اللاتينية (Josha, 1980:126).

وبناءً على ما سبق فقد أقام الصليبيون مستوطناتهم في المناطق الريفية حتى يتسنى لهم استغلال الأراضي الريفية الزراعية، (ماير، 1990: 227) ولا يمكن تحقيق ذلك إلا من خلال تهجير الفلاحين الفلسطينيين من أراضيهم وبيوتهم إلى مناطق خارج حدود المستوطنة أو حتى المملكة (مؤنس، 1992: 198).

سياسة بلدوين العمرانية:

قام الملك الصليبي بلدوين الأول بعد تتويجه مباشرة على مملكة بيت المقدس اللاتينية بالسيطرة على القلاع العسكرية الإسلامية وإخضاعها، وفي الوقت نفسه كان يخطط لإنشاء سلسلة قلاع تكون هجومية، تخدم خطط التوسع التي وضعها لتوسيع مملكته في كافة الاتجاهات خاصة المناطق الساحلية وبين القدس ويافا؛ وبين مدينة القدس ونابلس (Fedden, 1950:16).

وبالتالي فقد ارتبط النظام الإقطاعي في مملكة بيت المقدس اللاتينية بسبب قلة عدد الصليبيين في بلاد الشام وخاصة فلسطين وبالتحديد في مملكة بيت المقدس، ارتبط باستراتيجية مفادها اعتماد كافة المستوطنات والإقطاعيات الصليبية على بناء القلاع والأبراج كشبكة دفاعية مهمة جداً، خاصة في فترة حكم الملك بلدوين الأول (1100–1118م/494–512هـ) (William, 1943:415).

إن سياسية الملك بلدوين الأول التوسعية تقضي السيطرة على المدن والقرى وتحصينها بالقلاع؛ فقد قام الملك بلدوين بتشييد حصن أرنولد أو أرنول وذلك لتامين طريق الحج من مدينة القدس حتى مدينة الرملة (مؤنس، 1992: 96)، كما أنشأ عدة قلاع شمال فلسطين مثل قلعة صفد التي شيدت زمن أمير الجليل سنة (1102م/495)، (مولر، 1984: 15) وقلعة تبنين(1104م/498هـ) (William,1943:46) فضلاً عن قلعة هونين سنة (1101م/494هـ) (الصوافي، 2000: 180)، وكذلك قام ببناء قلعة تل المعشوقة قرب مدينة صور سنة (1108م/501هـ) (William,1943: 512)، وفي سنة (1105م/499هـ) عمل الملك بلدوين على تأسيس حصن العال ويعرف أيضاً باسم حصن بلدوين أو البردويل بالقرب من طبرية (Hugh, 1994: 40).

عُرف عن الملك بلدوين الاول أنه قام ببناء عدد كبير من القلاع والأبراج في مملكته، والتي غالباً ما حملت اسمه ولا زالت، حيث لا زالت بقاياها ماثلة للعيان، ففي مدينة نابلس قام ببناء قلعة نابلس وكذلك برج عرف باسم برج نابلس (Beyer,) (TurrisNeapolitana 155 :1940)، ونجد في مدينة الخليل في قرية حلحول برجاً يعرف بين عامة الناس باسمبردلو نسبة إلى الملك بلدوين،الذي منحه الملك لجوتيه (السيد، 1998: 122) المحمدي الذي ظهر كشخص من أكبر اعوان الملك بلدوين الاول الذي كان يرافقه في جميع تحركاته. ويرى أحد الباحثين الحديثين أن سلطة جوتيه في الخليل اقتصرت على كونه رئيساً لحامية قلعة المدينة (Beyer, 1942: 172).

أما في الجهة الشرقية لمملكة بيت المقدس، فقد قام الملك بلدوين ببناء قلعة أو حصن الشوبك (Fedden,1996:257) سنة 1115م، وكذلك حصن وادي الوعيرة الذي يقع في جبال الشراه (المومني، 1988: 336) ومن الجهة الغربية قام بتشييد قلعة في جزيرة فرعون في شبه جزيرة سيناء تعرف باسم قلعة بلدوين (السيد، 2008: 116) مملكة وفي أقصى جنوب فلسطين قام ببناء قلعة آيلة (ماير، 1990: 116).

نستنتج مما سبق أن الملك بلدوين الأول استطاع التغلب على مشكلة نقص العنصر البشري في جيش مملكته الصليبية، من خلال إحلال عنصر القلاع لتعويض هذا النقص، وبالتالي استطاعت القلاع الصليبية أن تكون قاعدة ارتكاز للكيان الصليبي، بفضل التخطيط والاستراتيجية التي اتبعها الملك بلدوين الأول في مملكة بيت المقدس اللاتينية، وأسهمت القلاع الصليبية في عهد الملك بلدوين الأول في حل مشكلة احتياج الصليبيين للمال من خلال سيطرتهم على الأراضي الزراعية، وتشريد سكان تلك القرى والمدن الفلسطينية وطردهم مثل قرية كفر وتقع إلى الشمال الشرقي من مدينة رام الله، قاومت الغزو الصليبي لفلسطين، هُجر سكانها فترة الملك بلدوين الثاني إلى قرية بيت فوريك شرق مدينة نابلس. (شراب، 2000: 629) واعتبرت نموذجاً للسياسة التي اتبعتها المملكة الصليبية حيال السكان المحليين (البيشاوي، 1990:325).

دور القلاع من الناحية التاريخية:

يعد عنصر القوة العسكرية هو الأساس الذي استندت إليه الإمارات الصليبية في بلاد الشام، وكانت تلك القلاع إحدى مظاهر التعبير عن تلك القوة، وهي السيطرة على الأرض وبناء القلاع والحصون عليها، وبمجرد وصول الصليبيين إلى بلاد الشام والسيطرة عليها، شرعوا في شن حملات واسعة لجعل ممالكهم محصنة ضد الهجمات الإسلامية المتواصلة. وتجدر الإشارة الى أن إقامتهم للتحصينات جاء استجابة لدواعي الصراع مع المسلمين، وربما لم يكن لديهم خطة لبناء تلك القلاع والأبراج قبل مجيئهم الى بلاد الشام، وإنما جاءت كحاجة ملحة فرضتها الظروف والمستجدات الجديدة التي اقتضت بناء تلك القلاع، حيث أنها أنشئت على فترات مختلفة (الصوافي، 2000: 106).

استخدمت القلاع والأبراج العسكرية والزراعية كنقاط للحراسة والمراقبة أمام التهديد الإسلامي من الشمال، والمتمثل بإمارة دمشق ومن الجيوش الفاطمية من الجنوب من مصر، بهدف منع الاتصال والتنسيق بين القوتين (Meron, 1970:291)، وخاصة أن الممالك الصليبية

جوبهت بمقاومة من هذه الأطراف ليس فقط في فلسطين بل في معظم أنحاء بلاد الشام، مما دفع بالصليبيين وتحت ضغط الحاجة الماسة لوجودهم على أرض غريبة وبعيدة عن بلادهم، إلى بناء تلك القلاع والأبراج والمستوطنات المسورة والمحصنة في سبيل المحافظة على ما سيطروا عليه، وبالتالي فقد مكنتهم القلاع من السيطرة على الأرض والسكان الأصليين في آن واحد (الصوافي،2000:107)

وبطبيعة الأمر ساعدت تلك القلاع على تسهيل حركة الصليبيين إلى المناطق التي لم يستولوا عليها في الحملة الصليبية الأولى، وجاء بناؤها لحماية مملكتهم الناشئة وتوفير الأمن لها من أجل ضمان انفسهم وممتلكاتهم من المقاومة الاسلامية، بالإضافة إلى قيامها بدور هجومي إذا حافظت تلك القلاع في أغلب الأحيان ولا سيما القلاع الحدودية على قواعد هجومية بحيث كانت مصممة لتكون مرتكزاً للقوات الصليبية التي تحاصر المدن الحصينة، وخطوط انطلاق الحملات والغارات السريعة في عموم الأراضي الإسلامية (William, 1943: 131).

الحياة داخل القلاع الصليبية:

لقد مورست الحياة العسكرية والاقتصادية والدينية والاجتماعية داخل القلاع الصليبية في بلاد الشام، باعتبارها تمثل نموذجاً مصغراً للاستيطان الأوروبي، ففي الجانب العسكري لعبت دوراً هاماً في حماية حدود مملكة بيت المقدس اللاتينية والإقطاعيات الأخرى المجاورة لها، ويتضح دورها العسكري من خلال التحصينات الدفاعية التي وجدت في كل قلعة ومن ضمنها قلعة بلدوين موضوع البحث، فهي في المقام الأول شحنت بالفرسان والجنود للهجوم والدفاع، وحماية المزارعين الذين يعملون ضمن الأراضي الزراعية التابعة للإقطاعية أو للمستوطنة أو القرية الزراعية (William, 1943:131).

تشير بعض المصادر التاريخية إلى أن الملك بلدوين الأول حرص على تنمية القطاع الزراعي في مملكته ؛ فعمل على أن تكون مصادر المياه متوافرة لسكان الإقطاعات والمستوطنات والقلاع؛ كما قام بالسيطرة على مصادر المياه الجارية في بلاد الشام؛ لأهمية تلك المياه في تنمية القطاع الزراعي وبالإضافة الى إنشاء صهاريج جمع المياه في المناطق الشحيحة خاصة الجبلية منها. إذ نجد أن جميع القلاع الجبلية البعيدة عن مصادر المياه الجارية، تحتوي على صهاريج لجمع مياه الشتاء داخل أسوار القلعة، ومن ضمنها قلعة بلدوين الجبلية (Theoderich, 1996 :64).

تم ممارسة الزراعة على نطاق واسع ولا سيما زراعة الكرمة والصناعات المرتبطة بتلك الصناعة، (William, 1943,205) وكذلك زراعة القمح والشعير والشوفان وغيرها من المحاصيل الزراعية، التي انبثقت عنها وجود منشآت صناعية بسيطة، كالأفران في كل مستوطنة والتي كانت حكراً على العائلات الإقطاعية. ولا يحق لعامة الناس أو المسلمين امتلاكها، وطواحين القمح التي كانت كذلك حيث كان يدفع الفلاحون مقداراً معيناً من الطحين للإقطاعي الصليبي مقابل عملية الطحن في مطحنته، وكذلك زراعة الكرمة وقصب السكر أدت لوجود معاصر عصر العنب وطواحين للسكر، فكل نوع من تلك المزروعات كان لها أثر كبير في تطور الناحية الاقتصادية في الاقطاعات الصليبية في المشرق، ففي فلسطين تعتبر الأراضي الزراعية من أخصب الأراضي الزراعية لا سيما في الساحل الفلسطيني وكذلك في مناطق التلال في وسط فلسطين، فالأراضي صالحة لزراعة أشجار الكرمة والزيتون (Benvenisti, 253).

لقد عمل المسلمون في تلك المنشآت بالإضافة الى المسيحيين الشرقيين، مقابل أجر عيني، وبناءً على ذلك فقد كانت تلك القلاع توفر فرص عمل للفلاحين المسلوبة أراضيهم من الصليبيين، بالإضافة الى كونها تمثل مركزاً صناعياً يرتاده المسلمون والمسيحيون على السواء للطحن الحبوب، ويرجح ان المسلمين لم يكونوا يعملون ضمن معاصر عصر النبيذ؛ لأنها تخالف الدين والشريعة الإسلامية، فيضيف دينس برنجل في مقالة حديثة نشرته مجلة تاريخ العصور الوسطى بأن القلاع الصليبية الريفية كانت تشكل مركزاً صناعياً لمزارعي الأرياف المسلمين والمسيحيين ولا تكاد قلعة صليبية تخلو من تلك المنشآت (Denys, 2012: 408).

ومن ناحية أخرى، فقد تنوعت الزراعة حول القلاع الصليبية، ففي المناطق الجافة والصحراوية أو منطقة الغور وطبرية تمت زراعة كروم النخيل (Saewuif, 23) كما زرعت المناطق الجبلية ذات التربة البيضاء بأشجار الخوخ والرمان والتوت والخروب بين نابلس وبيت المقدس (Daniel, 1895: 58).

لقد منح التنوع الزراعي فرصة لقيام عدداً كثيراً من الصناعات القائمة على المحاصيل الزراعية، كما ذكرنا سابقاً، لا سيما صناعة قصب السكر الذي اشتهرت بها مدينة أريحا، حيث وجدت معاصر قصب السكر ولا زال بعضها قائماً حتى إعداد هذا البحث والتي تعرف حالياً بمعاصر السكر المملوكية (Thompson, 1959:359).

وكانت الأنشطة الصناعية داخل القلاع الصليبية والمستوطنات، فقد كانت متنوعة، فنجد على سبيل المثال الصناعات القطنية والصوفية والحريرية؛ نظراً لتوفر المواد الأولية من زراعة محصول القطن وصوف الحيوانات ومن خلال تربية دودة القز وكذلك صناعة الكتان حيث كانت إقطاعية نابلس مشتهرة بهذا النوع من الصناعة، وبالتالي انعكس هذا على القلاع والضياع والمستوطنات التي كانت تقع بين مملكة بيت المقدس وإقطاعية نابلس، خاصة فترة الملك بلدوين الأول (Lamonte, 121). كذلك كانت تقوم في مملكة بيت المقدس والمناطق المجاورة صناعة الأصباغ وصناعة قصب السكر والنبيذ واستخراج زيت البلسم والزيوت النباتية وصناعة الصابون (البيشاوي، 2014:190) وكذلك صناعة الفخار والزجاج والقوارير والرخام والأسلحة والدروع (Daniel, 1895:73). ونعتقد أن سيد القلعة الإقطاعي كان يوظف بعض العمال لإدارة الطواحين والمخابر مقابل أجر عيني يدفع لهم؛ أما ما كان يتقاضاه صاحب الفرن أو المطحنة فهو (العشر)، عن كل عشرة أرغفة رغيف، وعن كل عشرة جرار زيت جرة، وعن كل عشرة أكيال طحين كيل واحد.

أما فيما يتعلق بالنواحي التجارية التي مورست من خلال المستوطنات والقلاع الصليبية، فقد ساعد موقع فلسطين وبلاد الشام وعلاقتها بأهم المدن الإيطالية التجارية كجنوة وبيزا والبندقية؛ ووجود الموانئ على الساحل الفلسطيني لا سيما مدينة عكا ساعد في سهولة تصدير واستيراد البضائع من وإلى فلسطين (Daniel, 1895:55) أما من الناحية الاجتماعية، فقد جلب الصليبيون إرثهم وثقافتهم وعاداتهم وقيمهم وتقاليدهم وطبقاتهم الاجتماعية الى فلسطين، وقد اتضح ذلك من خلال استخدام طبقة النبلاء الإقطاعيين التي حكمت وتولت مقاليد الأمور في الإقطاعيات والقرى والكنائس في فلسطين (السيد، 2008: 199).

إن المتتبع لتاريخ الصليبيين وعمارتهم وقلاعهم ومستوطناتهم في بلاد الشام وفلسطين، يلاحظ أنها قامت على أساس ديني؛ فالفرق الدينية كالإسبتارية والداوية التي أسهمت في بناء تلك القلاع لا سيما الواقعة حول مدينة القدس، لذلك يمكن القول أن القلاع الصليبية تحتوي على كنائس للعبادة وخاصة كنائس اللاتين التي كانت تعتبر مستوطنات القدس وما حولها كانت تابعة لتلك الأديرة، ففي بعض القلاع تم عمل حفريات أثرية وكشفت فيها المباني الدينية، ولا تكاد قلعة تخلو من تلك الكنائس.

الفصل الثاني: مخطط القلعة وتاريخ البناء

مخطط القلعة:

قسم الدارسون للعمارة الصليبية القلاع والأبراج إلى ثلاثة أنماط اعتماداً على وظيفة القلعة وطبيعة الدور المنوط بالقلاع أو الحصون أو الأبراج (P.C.Plames,1975:527)، فالنمط الأول كان يطلق عليه قلاع الحج وخاصة الواقعة على طريق القدس–عسقلان مثل قلعة بيت نوبا وتقع في الجهة الجنوبية الشرقية من مدينة الرملة (Willia, 1943:103) وقلعة اللطرون، (Denys, 1991:89) والنمط الثاني، القلاع والتحصينات الساحلية مثل عسقلان ويافا وصيدا وطرابلس (Paul, 1939:8) أما النمط الثالث وهو الأقل أهمية فهو الأبراج والقلاع الداخلية التي تقع ما بين والإقطاعيات الداخلية بين الجليل ونابلس والشوبك؛ ومن ضمنها القلاع والأبراج التي توجد شمال مستوطنة البيرة (Ronne, 19989:68).

وبناءً على ما سبق ذكره فإن الاختلاف في نوعية وأنماط القلاع انعكس على تخطيط تلك القلاع، حيث نجد غالبية القلاع والأبراج الريفية الداخلية متشابهة من حيث الأسس العامة لتخطيطها، وبالتالي فإن مقارنة برج جفنا وبتين والطيبة وقلعة أو برج بردويل (بلدوين)، وسنجل، وبيرزيت سنجدها مربعة الشكل مع وجود أبراج دفاعية بارزة عن مستوى الجدار الرئيس للقلعة؛ حتى يتسنى للمدافعين أن يكونوا أقرب للمهاجمين من خلال بروز تلك الأبراج إلى الخارج، فهذه الأبراج وجدت في غالبية القلاع البيزنطية والرومانية والإسلامية، ولكن مع اختلاف بسيط في شكل تلك الأبراج مربعة أو مستطيلة أو نصف دائرية (Ronne, 1998:239).

ويلاحظ من خلال مقارنة تخطيط القلاع والأبراج الصليبية شمال مملكة بيت المقدس أن بعضها أحيط بسور خارجي من جميع الجهات بحيث اعتبر البرج الرئيس كجزء من الحصن أو القلعة، كقلعة بلدوين –موضوع البحث– (Prawer, 1972:297) ويضيف ستيفن رنسمان أن هذا النوع من القلاع يعتبر نموذجاً للقلاع الهجومية (رنسيمان، 1993: 29)، كما وجد نموذجاً أخراً للقلاع الصليبية والذي أحيط بسور خارجياً عادة صياغة، بحيث أصبح هناك مسافة بين البرج الداخلي المستقل وبين السور الخارجي الذي يحيط بالقلعة، أما النمط الثالث فهو البرج المربع أو المستطيل وهو بدون تحصينات خارجية أو أسوار دفاعية خارجية؛ مثل برج جفنا كنموذج لهذا النمط من الأبراج (Meron, 1970:291).

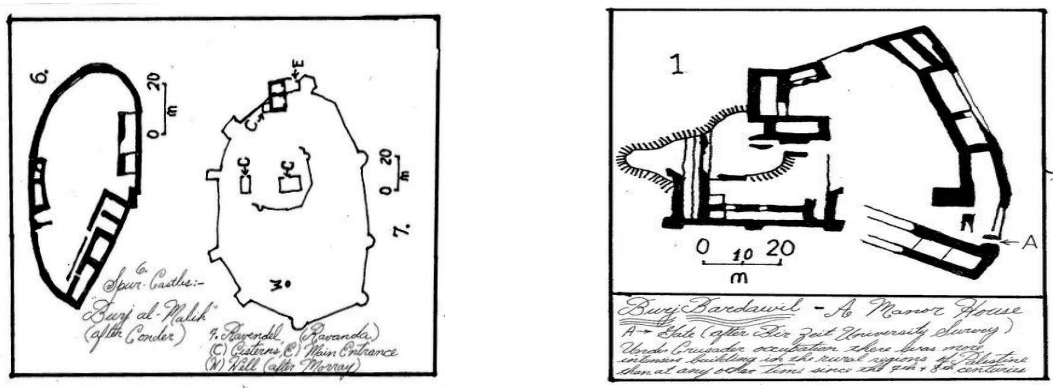

مخطط قلعة بلدوين حسب Denys, Pringle مخطط برج المالحة حسب Denys, Pringle

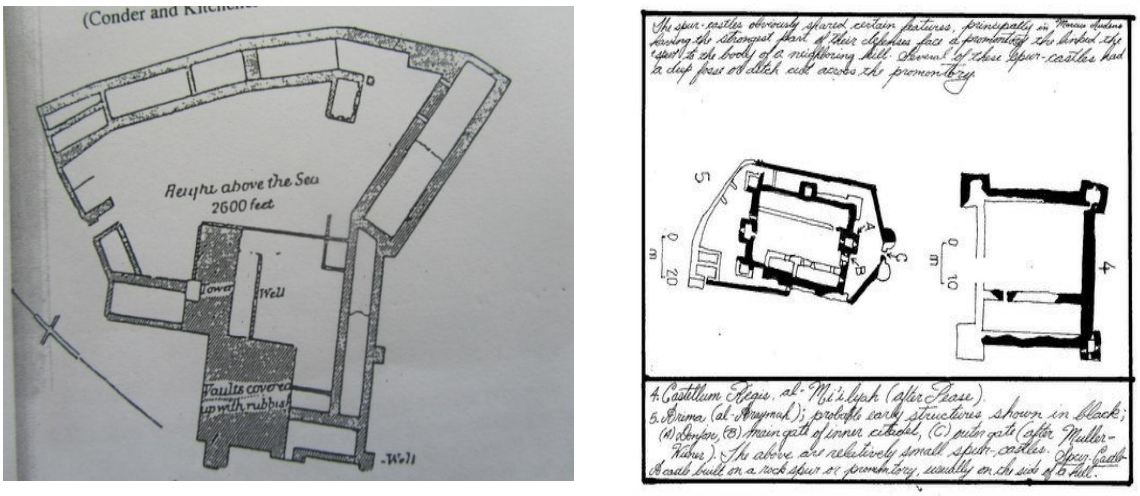

Denys, Pringle مخطط قلعة الطيبة حسب مخطط قلعة بلدوين حسب Denys Pringle

تاريخ بناء القلعة:

غالبية الدراسات التاريخية التي تناولت موضوع القلاع في مملكة بيت المقدس اللاتينية، والسياسية العمرانية التي انتهجها الملك الصليبي بلدوين الاول تشير إلى تن تاريخ بناء القلعة يعود إلى فترة حكمه 1100–1118م؛ حيث بدأ بإنشاء سلسلة قلاع وأبراج دفاعية وهجومية في شمال مملكة بيت المقدس وصولاً إلى قرية سنجل شمال مدينة رام الله في الوقت الحاضر، كما قام ببناء سلسلة قلاع أخرى في فلسطين والمناطق المجاورة مثل قلعة الشوبك وقلعة فرعون وقلعة بلدوين موضوع الدراسة وقلعة برج بردويل في قرية حلحول في شمال مدينة الخليل وغيرها من الأبراج مثل الطيبة وبرج بتين، وقد عرفت ثلاثة قلاع على الأقل باسمه شخصياً برج بلدوين وسط مدينة عمان، وبرج بلدوين شمال مدينة حلحول، وقلعة بلدوين موضوع الدراسة (Denys, 2000:30).

الفصل الثالث: وصف القلعة من الناحية المعمارية

مواد البناء:

استخدمت الحجارة كمادة أساسية في بناء القلاع الصليبية، هنا تستخدم الفاصلة غير المنقوطة وهي تتوافر بشكل أساس في كافة أنحاء فلسطين كافة، فمنها استخدم دون تصنيع كمادة الحجارة غير المشذبة، ومنها ما شذب، والحجارة المستخدمة أنواع، فمنها الحجارة الكلسية الصلبة التي تستخدم في الجدران بشكل عام، والتي كانت تؤخذ أو تقطع من المكان ذاته، إذ تبين وجود آثار لمقاطع صخرية حول القلعة، ومنها الحجارة الطباشيرية أو الجيرية التي تمتاز بخفة وزنها وسهولة تشكليها، والتي استخدمت في السقوف والمداخل، بالإضافة إلى مادة الشيد التي كان يتم تصنيعها من مادة الحجر الجيري بعد أن يتم حرقها على درجة حرارة عالية جداً، وتصبح الحجارة مادة اسمنتية بيضاء اللون، كما استخدمت مادة الخشب والفخار في عملية البناء.

أنواع الحجارة:

حجارة كلسية مشذبة:

هي حجارة كبيرة الحجم، جاء بعضها بشكل مربع وبعضها مستطيل الشكل، شذبت بشكل بسيط لا سميا من السطح الخارجي، استخدمت في السور الخارجي للقلعة ويصل بعضها إلى متر وستين سنتمتر، وتوجد حجارة في السور الخارجي من الجهة الشمالية الشرقية وتمتاز بأن سطحها الخارجي مشذب ولكنه ليس أملس.

تصوير الباحثين (الزاوية الشمالية الغربية من السور الخارجي) جزء من السور الغربي الخارجي للقلعة

حجارة كلسية مشذبة من الأطراف:

استخدم هذا النوع من الحجارة في زوايا الأبراج والزوايا الخارجية للسور الخارجي، حيث شذبت الزوايا بشكل متقن وبقي جزء من الحجر نافراً عند الزاوية من الاتجاهين، على مسافة 10سم وعمل على تشذيب بقية الحجر لكي يكون أملس السطح، وهي عبارة عن حجارة كلسية ملساء مستطيلة الشكل شيدت فقط في الزوايا الرئيسة للسور الخارجي، وظهر على بعض تلك الأنواع من الحجارة علامات تدل على شخصية النقاش أو صانع الحجر.

تصوير الباحثين: الزاوية الجنوبية الشرقية من السور الخارجي

الحجارة الكلسية الملساء:

استخدم هذا النوع من الحجارة في السور الخارجي، لاسيما في الأجزاء العلوية منه، أما الجزء السفلي فكانت الحجارة أكبر حجماً من الجزء العلوي، لتكون صعبة في حالة نقبها أو مهاجمتها من قبل الأعداء، وكذلك شيدت بتلك الحجارة الأبراج الخارجية التي توزعت على الأسوار لصعوبة تسلقها من خارج القلعة، وأحجامها متفاوتة بين 40×30 الى 50×40سم ، جاء بعضها مربع الشكل وبعضها الآخر مستطيل الشكل، كذلك أطرافها من الجهات الأربعة، ليست في غاية الدقة والإتقان، إذ لا تحتوي على علامات مميزة للصناع كما هو الحال في حجارة النموذج السابق.

منظر آخر لذات البرج من الجهة الجنوبية تصوير الباحثين (برج في السور الجنوبي)

الحجارة الطباشيرية:

استخدمت في السقوف لأنها تمتاز بخفة وزنها مقارنة بالحجارة الكلسية حيث إن جميع سقوف البوائك والاسطبلات والمباني، سقفت بهذا النوع من الحجارة دون استثناء، وأحياناً تسمى الحجارة العقادية لأنها تستخدم في عقد السقف أو عقود الأبواب والشبابيك لسهولة تشكيلها على الصناع والحجارين.

تصوير الباحثين(عقد نصف برميلي مدبب) تصوير الباحثين (عقد نصف برميلي)

مادة الشيد: (الكلس):

استخدمت مادة الكلس أو مادة الشيد في القلعة على نطاق واسع، حيث تمت قصارة السقوف وأسطح الغرف والاسطبلات والبوائك من الداخل بحيث تم تغطية الحجارة العقادية بشكل كبير جداً، كما استخدمت في بناء تغطية أسطح تلك الغرف، وكذلك تم خلط مادة الشيد بالحجارة الصغيرة والكبيرة مع مادة التراب التي وضعت بين المدماك الداخلي والخارجي للأسوار والجدران الداخلية، كما أستخدم الشيد في عملية قصارة أسقف الغرف والمباني من الجهة الداخلية.

مادة الفخار:

من خلال دراسة وفحص بعض الأسقف الداخلية تبين وجود خليط من مادة الفخار مع مادة الكلس، وقد استخدمت لعدم تسريب مياه الأمطار والرطوبة إلى الداخل، وقد وجدت كسر الفخار بألوان مختلفة وهذا الاستخدام شاع في كثير من المباني ليست الصليبية فحسب، وإنما في فترات مبكرة للفترة الصليبية.

تصوير الباحثين (سقف أحد الأقبية التي توجد داخل القلعة)

مادة الخشب:

كانت عملية تسقيف البوائك[1]والإسطبلات والأبراج والغرف الداخلية تتم عن طريق وضع ألواح من الخشب مع دعامات أرضية خشبية، أو عن طريق تعبئة الحيز الداخلي بجذوع الأشجار وبعض الأشجار الصغيرة التي لا زالت تتواجد في البيئة الفلسطينية، وفي منطقة بناء القلعة وبكثرة، مثل شجرة النتش وهي نبتة أو شجرة شوكية صغيرة وبعد الانتهاء من وضع آخر صف من المداميك يتم إزالتها إذ إن تقنية التسقيف المستخدمة تؤدي إلى تماسك حجارة السقف بدون عامل مساعد، وذلك بسبب ضغط وتداخل الحجارة مع بعضها.

تصوير الباحثين (عقد مدبب في الجهة الجنوبية الشرقية من القلعة)

[1] البوائك وجمعها بائكات مفردها بائكة، وأطلقت في بلاد الشام على المخازن الكبيرة التي تتكون من قناطر تعلو أبوابها، أما معمارياً فهي مجموعة من الأعمدة المتتابعة على خط مستقيم والموصولة بأقواس من أعلاها لتحمل السقوف. أنظر: كتاب بوائك المسجد الأقصى، منظمة التحرير الفلسطينية، دائرة شؤون القدس.

تقنيات البناء المستخدمة في القلعة:

بناء المداميك:

يتضح من خلال المسح الأثري والمعماري للموقع أن هناك تقنية استخدمت في عمارة القلعة على نمطين: النمط الأول، يتعلق باستخدام الحجارة الكبيرة في الجزء السفلي من الأسوار الخارجية مع وجود 4سم تقريباً بين المدماك الأول والذي يليه وهو محشو بمادة التراب والشيد والحصى، أما النمط الثاني فهو استخدام حجارة أصغر حجماً وأكثر تشذيباً في الجزء العلوي من الأسوار الخارجية، وبعضها مطلي بمادة الشيد، حتى يصعب تسلق تلك الجدران الخارجية، أما من الجهة الداخلية من الأسوار، فكانت مبنية بحجارة غير مشذبة من المدماك الأول حتى الأخير، ولكنها محشوة بمادة الملاط أو الشيد والحصى الصغير.

العناصر المعمارية:

بوابة القلعة:

توجد بوابة القلعة في الجدار الغربي الذي يطل على ساحة منبسطة باتجاه قرية جفنا، إذ تبين من خلال المسح الأثري الميداني للموقع أن هناك طريقاً يربط الطريق الروماني القديم بالقلعة والأبراج والإقطاعيات الصليبية الأخرى، مثل قرية جفنا وقرية بيرزيت التي تقع إلى الجهة الغربية من القلعة. أما من الناحية المعمارية فعرض مدخل القلعة تقريباً ستة أمتار وهو مهدم كلياً وبقي جزءاً بسيطاً من الأطراف السفلية للمدخل.

يحيط بالمدخل قاعتان رئيستان بشكل مستطيل، ملاصقتين للسور الخارجي من الجهة الغربية، ويبلغ طول الواجهتين من الجهة الجنوبية والشمالية أربعة أمتار تقريباً. أما من الناحية المعمارية فالمدخل بسيط من حيث التخطيط والبناء، وعلى ما يبدو نظراً لارتفاع السور من الجهة الشمالية فإن ارتفاع المدخل كان تقريباً ثمانية أمتار، بعرض أربعة أمتار بمعنى الارتفاع ضعف العرض، وأنه كان يعلوه عقد نصف برميلي يغطي مسافة أربعة أمتار إلى الداخل. والمدخل غير واضح المعالم حيث تم إغلاقه بوساطة حجارة صغيرة الحجم من قبل صاحب الأرض التي توجد فيها القلعة. أنظر شكل ومخطط القلعة الآتي.

تصوير الباحثين (مدخل القلعة المتهدم يسار الصورة) مخطط القلعة (Denys Pringle.p31)

أسوار القلعة:

تتكون أسوار القلعة من نمطين، النمط الأول مزود بأبراج مربعة نافرة خارج مستوى السور الرئيس في الجهة الجنوبية وجزء من السور الشمالي، أما بقية الأسوار من الجهة الغربية والشمالية فهي بدون أبراج.

وقد شيدت أسوار القلعة على مرحلتين، المرحلة الأولى وهي الأقدم والتي تشكل البرج المربع تقريباً بطول 90×90م والذي يقع في الجزء الجنوبي من القلعة، وهو بناء مربع محاط بأربعة أبراج دفاعية، يتكون من عدة غرف كبيرة مقببة بعقود نصف برميلية ومدببة؛ وأما الأسوار والفناء الداخلي فقد شيد في مرحلة متأخرة عن المرحلة الأولى؛ نظراً للتخطيط وطبيعة وحجم الحجارة المستخدمة. ويبدو أن البرج تطور ليصبح قلعة فيما بعد لأسباب تتعلق بالنواحي الأمنية، أو ربما لزيادة عدد السكان الصليبيين في تلك المنطقة.

أما من الجهة الشمالية فقد اتسعت القلعة وأصبحت مساحتها ضعفي البرج الأصلي الذي يتكون منه البناء، فكان التوسع إلى الجهة الشمالية نظراً لطبيعة المنطقة الجغرافية، وكانت الأسوار مرتفعة جداً بعلو ثمانية أمتار خاصة في الزاوية الشمالية الغربية، وتم عمل ممرات تعلو تلك الأسوار بعرض 50سم بحيث يمكن للجندي الصليبي أن يسير على تلك الأسوار دون أن ينكشف للعدو، ولا يظهر سوى الجزء العلوي لجسم المدافع من داخل القلعة. وعرض تلك الأسوار في الجزء العلوي منها في المناطق التي توجد بها الممرات الدفاعية، لا يتعدى ستين سنتمر أما بقية الأسوار في الجزء الغربي فهذا التكنيك غير واضح المعالم بسبب تهدم الجزء العلوي من تلك الأسوار.

تصوير الباحثين(مقطع من السور الشمالي) تصوير الباحثين(مقطع من السور الغربي)

العقود:

اعتمدت عملية بناء العقود بالقلعة على المعماري أو البَنّاء والنَجار معاً، بحيث لا بد من تصميم العقد أولاً، ومن ثم يأتي دور البناء ليقوم بعملية وضع الحجارة المربعة والمتناسقة في مداخل الأبواب والشبابيك، ولكن بسبب تهدم الأجزاء العلوية من القلعة لا يظهر بشكل واضح شكل العقود في القلعة، ولكن من خلال مقارنة قلعة بلدوين بعدة قلاع ومبان صليبية تعود لتلك الفترة التاريخية، فعلى الأغلب لا يوجد فرق كبير بين تلك العقود التي استخدمت في القلعة وخاصة الأبراج وبين العقود التي استخدمت في القرى الريفية شمال وشرق مدينة القدس (Ellenblum, 1987:167).

الأقواس:

استخدمت الأقواس البرميلية المدببة في القلعة على نطاق واسع، ومن خلال عملية المسح وحتى إعداد هذا البحث، تبين وجود أثني عشر قوساً مدبباً لا زال باقياً، أربعة منها بحالة كاملة ، والبقية أجزاء من أقواس متهدمة جزئياً، أما القوس الكامل فيعرف عند عامة الناس باسم البابورية أو البوبرية يبلغ عرضها حوالي ستة أمتار وطولها أكثر من اثني عشر متراً، ذات سقف نصف برميلي مدبب، أما معنى كلمة بابورية فهي تعرف باللاتينية (Bovaroa or Boveria) وباللغة الفرنسية (Bourviaum) بمعنى اسطبل أو زريبة، وخلال البحث عن الكلمة باللغة الإنجليزية (byre) وجد انها بمعنى زريبة أيضا (Meron, 1970:239)، ولكن من خلال تتبع بعض الألفاظ المستخدمة محلياً حتى الوقت الحاضر في الريف الفلسطيني، يقال بابور أو ببور الطحين، ببور أو بابور الزيت وبابور الكاز، يستنتج أن المصطلح قد يكون مغايراً

لما ذكره بنفستي وأن الكلمة معناها ببور الطحين إذ إننا قد أسلفنا أن كل قلعة كان يوجد بها طاحونة قمح أو معصرة زيت كانت حكراً على الإقطاعيين الصليبيين، وكذلك ذكرنا أن تلك الإقطاعيات والقلاع كانت تقوم بالأساس على الزراعة، وان كل نوع من تلك المحاصيل ارتبط بصناعة معينة في تلك الفترة التاريخية.

تصوير الباحثين (قوس البابورية) تصوير الباحثين(قوس في الجزء الشمالي من القلعة)

الشبابيك أو الفتحات:

تخلل الأسوار الدفاعية بعض الفتحات المستطيلة الدفاعية ؛ وهي فتحات مستطيلة الشكل بطول 80سم وبعرض 20سم من الجهة الخارجية، وتتسع من الجهة الداخلية بعرض 1م. ويمكن بمقدور المدافع عن القلعة رمي السهام وإلقاء الزيت وغيره من الوسائل الدفاعية، وتشكل هذه الفتحات تقنية دفاعية فعالة إذ إنه من الصعوبة إصابة الهدف إلا من خلال التصويب وبدقه بالغة؛ نظراً لصغر فتحة السقاطة[2] الدفاعية، ولا نعرف إذا كان هناك سقاطات نافرة خارج السور في أجزاء أخرى من القلعة أم لا، بسبب تهدم الأجزاء العلوية من السور.

تصوير الباحثين(منظر يوضح بعض السقاطات في أسوار القلعة)

[2] السُقاطة أو السُقاط : جمع سُقَّاطات ، وهو ما يسقط من الشيء. انظر: المعجم الوسيط، مادة سقط.

نتائج وتوصيات:

يعرف البرج باسم برج البردويل عند غالبية أو عامة الناس، فالاسم الصحيح هو بلدوين، وأما الأسماء الأخرى ما_هي إلا تحريف لاسمه. فلا يزال يعرف لغاية الآن اسم عائلة بردويل وهي من بقايا العائلات الصليبية التي بقيت واستوطنت في ريف فلسطين، وغيرها من العائلات الأخرى مثل عائلة البرغوثي في قرى رام الله، وعائلة براغيث في بيت أمر في مدينة الخليل، وتحولت إلى الدين الإسلامي بعد الفتح الإسلامي لفلسطين على يد صلاح الدين الأيوبي.

لقد تبين من خلال دراسة المنشآت المعمارية والدلائل التاريخية التي أفادت أن تاريخ بناء القلعة، يعود إلى الفترة الواقعة ما بين (1100 –1118م) وهي فترة حكم الملك بلدوين الأول، ويرجح أن بناء القلعة قد تم في بداية حكمه، ويعرف عنه أنه أول من قام بإنشاء شبكة أبراج وقلاع في فلسطين والمناطق المجاورة، مثل الكرك والشوبك وقلعة فرعون وقلعة بلدوين موضوع الدراسة وبرج بلدوين في الخليل وفي جزيرة فرعون في جنوب فلسطين وغيرها من المناطق وقد عرفت ثلاثة قلاع على الأقل باسمه شخصياً برج بلدوين وسط مدينة عمان، وبرج بلدوين شمال مدينة حلحول، وقلعة بلدوين موضوع الدراسة.

على صعيد الأراضي وتقسيماتها في الفترة الصليبية، فقد كانت قلعة بلدوين وإقطاعها تابعة لمملكة بيت المقدس اللاتينية، أسوة ببقية القلاع والأبراج الممتدة ما بين مملكة بيت المقدس وإقطاعية نابلس، وبالتالي فإن القلعة من الناحية الإدارية كانت تابعة لمملكة بيت المقدس الصليبية ، ولكن لم يتبين من خلال المصادر التاريخية لاسيما التي تناولت موضوع القلعة، إذا كانت القلعة والأراضي المحيطة بها من إقطاع الكنيسة اللاتينية في مستوطنة البيرة، أم أنها كانت لإقطاعيً فرنسا الذين نزلوا مدينة البيرة أم إقطاعاً عسكرياً.

واستنتج الباحثان أن قلعة بلدوين يطلق عليها اسم البابورية أو البوبرية وهي ذات معانٍ مختلفة ومتضاربة فتارة تذكرها المصادر على أنها تعني الزريبة أو زريبة الثيران، أو بمعنى الإسطبل. ولكن من خلال البحث حول هذا الموضوع، ذكر هذا المصطلح في غالبية القلاع والمستوطنات الصليبية فقد ذكر على سبيل المثال اسم مبنى البابورية في مستوطنة البيرة وفي بيت جالا وفي مستوطنة راماتيس والقبيبة وغيرها من المستوطنات الصليبية، إذا استنتجنا أن هذا المصطلح يعني على الأغلب مطحنة القمح أو معصرة الزيت؛ إذ انه لغاية الآن هذا المصطلح متداولاً بين سكان الريف الفلسطيني، فيقال بابور وببور الزيت وبابور وببور الطحين أو القمح؛ حيث كانت غالبية القلاع والمستوطنات الصليبية تحتوي على هذا البابور، وكان حكراً على السيد الإقطاعي، حيث كان يطحن القمح للفلاحين المسلمين والصليبيين على السواء، مقابل نسبة معينة من القمح، أو عصر الزيتون في بابور الزيت مقابل أخذ تسع أو عشر الكمية، أو أخذ عجم أو ما يسمى ببزر حب الزيتون وهذا النظام لا زال مستخدماً في فلسطين حتى إعداد هذا البحث ولا يتقاضى صاحب معصرة الزيت أموالاً من صاحب الزيتون إلا في حالات نادرة.

لقد اتضح من خلال دراسة مخطط وعمارة القلعة الصليبية أنها شيدت على مرحلتين، ففي المرحلة الأولى، لم تكن سوى برج مربع الشكل يحيط به أبراج مربعة من الجهة الشرقية والجنوبية، أما المرحلة الثانية، فهي عبارة عن أسوار دفاعية ومنشآت معمارية شيدت في الجهة الشمالية وهي تساوي ضعفي البرج القديم، كما تبين أن القلعة تمثل نمطاً للعمارة التقليدية الريفية الفقيرة نوعاً ما، إذا ما قورنت ببعض القلاع مثل قلعة الكرك والشوبك والقلاع التي توجد شمال فلسطين.

وتبين من خلال العدد الكبير للقاعات والاسطبلات التي شيدت في الجزء الشمالي من القلعة أولاً، زيادة عدد سكان القلعة والمناطق المجاورة التي كانت تحتمي بها في حال الهجوم المباغت على تلك المنطقة؛ وأن القلعة تحتوي في الأغلب على كنيسة، وعلى مطحنة لطحن الحبوب، ومعصرة زيت وعنب، وربما على فرن للخبز، ولكن لم يتم إجراء حفريات علمية للكشف عن تلك المنشآت، والتي نرجح أن تكون في الجزء الشمالي من القلعة، وأن البرج الرئيس الجنوبي كان مقراً عسكرياً وإدارياً للسيد الإقطاعي في القلعة.

ويلاحظ أن عملية البناء قد استخدمت تقنيات بناء معروفة كبقية القلاع والأبراج الصليبية، كالحجارة الكبيرة والمشذبة وغير المشذبة، ومادة الشيد والفخار. أما وضع القلعة بشكل عام فقد أتت عليه عوامل الزمن، وهي بحاجة إلى ترميم وتأهيل.

المراجع:

أولاً: المراجع العربية:

البيشاوي، سعيد (1990): *الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية*. دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، الطبعة الأولى.

البيشاوي، سعيد (2014): *إقطاعية نابلس في عصر الحروب الصليبية*. دار الشيماء للنشر والتوزيع، رام الله فلسطين، الطبعة الثانية.

الدباغ، مصطفى مراد (1988): *بلادنا فلسطين*. بيروت، الجزء الثامن، ق2.

شراب، محمد محمد (2000): *معجم بلدان فلسطين*. عمان، الأردن، الطبعة الثانية.

الصوافي، طالب (2000): *القلاع في شمال فلسطين*. مؤسسة الأسوار، عكا، الطبعة الأولى.

عاشور، سعيد (1975): *الحركة الصليبية*. الجزء الأول، القاهرة، الطبعة الثانية.

علي، احمد السيد (1998): *الخليل والحرم الابراهيمي في عصر الحروب الصليبية*. درا الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى.

عوض، محمد مؤنس (1992): *الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس اللاتينية (1099-1187)*. مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى.

محمد، مؤنس (1992): *الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس اللاتينية 1099-1187م*. القاهرة.

محمود، هنادي السيد (2008): *مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الأول*. دار العالم العربي، القاهرة.

ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت:711هـ/1311م): *لسان العرب*. صادر، دار بيروت، د. ط، الجزء الثامن.

المومني، سعد محمد (1988): *القلاع الإسلامية في الأردن*. عمان، الاردن، الطبعة الأولى.

ثانياً: المراجع الأجنبية المترجمة:

ثيودويش. (2003): *وصف الأماكن المقدسة في فلسطين*. ترجمة: سعيد البيشاوي ورياض شاهين، دار الشروق، عمان، الأردن، الطبعة الأولى.

رشار، جان (1994): *تكوين مملكة بيت المقدس اللاتينية وبنيتها "الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين"*. مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ضمن كتاب الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى، تحرير هادية دجاني وبرهان دجاني، الطبعة الأولى.

رنسيمان، ستيفن (1993): *تاريخ الحروب الصليبية*. ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت الطبعة الأولى، الجزء الأول.

فوشيه، الشارتري (2001): *الاستيطان الصليبي في فلسطين*. ترجمة: قاسم عبده قاسم، دار الشروق الأولى، الطبعة الأولى.

الفيتري، يعقوب الفيتري (1998): *تاريخ بيت المقدس*. ترجمة سعيد البيشاوي، دار الشروق، عمان، الطبعة الأولى.

كريزويل، ك. (1984): *العمارة الإسلامية الأولى*. نقله الى العربية عبد الهادي عبلة، دار قتيبة، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى.

ماير، هانز (1990): *تاريخ الحروب الصليبية*. ترجمة عماد الدين غانم، طرابلس الغرب، ليبيا.

مولر، فولفغانغ فيز (1984): *القلاع أيام الحروب الصليبية*. ترجمة محمد وليد الجلاد، دمشق، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الثانية.

ثالثاً: المراجع الأجنبية:

Bagatti, B. (1971): *Gifna, Villaggio Cristiano Di Guidea*. In La Trarra-santa, Jerusalem.

Berand, H. (1980): *The Latin Church in the Crusader State*. London.

Beyer, G. (1940): *Neapolis And Sein Gebiet in der Kreuzfahrerziet*. in ZDPV, LXII, 155-209.

Beyer, G. (1942): *Die Ureuzfahrergebiete von Jerusalem und S. Abraham (Hebron).* ZDPV, LXV, 165-211.

Conder, C. R., and Kitchener, H. H. (1881): *The Survey of Western Palestine*. London.

David, N. (2004) : *Crusader Castles in the Holy Land*. Ospery Publishing, USA.

Daniel, J. (1895): *Pilgrimage of the Russian Abbot Daniel in the holy Land.* Trans by Wilson, London

Denys, P. (1997): *Secular Building in the Crusader Kingdom of Jerusalem*: An *Archaeology Gazetter*. Cambridge University Press.

Denys, P. (1997): *Fortification and Settlement In Crusader Palestine*. Ashgate, p.L.

Denys, P. (1991): *Survey of castles in the Crusading Kingdom of Jerusalem: in Levant.* Journal of British School of Archaeology in Jerusalem, Vol. 23, Jerusalem.

Ellenblum, R. (1987): *Construction Methods in Frankish Rural (Settlements)*. In Horns of Hattin, Jerusalem.

Fedden, R. (1950): *Crusader Castles*. London.

Geneviene (1984): *La Cartulaire Du Champitre de saint sepulcher de Jerusalem*. Paris.

Guren, V. (1874): *Description Geographique Historique et Archeologique de la Palestine*. II, Samrie.2, Pt.1, Paris.

Hussen, M. (1957): *La Division Politico-Administrativa de la Espana*. *Musulmana*. EnRefi, Madrid.

Kennedy, H. (1994): *Crusader Castles*. Cambridge University press.

Richard, J. (1979): *The Latin Kingdom of Jerusalem*. translated by: Janet Shirley, Amsterdam, New York, Oxford.

Prawer, J. (1980):

1- *The Latin Kingdom of Jerusalem*. Jerusalem, 1972.

2- *Crusader Institutions*. Oxford, 1980.

Creswell, K.A.C. (1919): *Archive Crusadingm.* No.54, Courtesy of the A Ashmolean Museum, Oxford.

Cuello, A. M. (1996): *Poblamiento y castillos en Granada*. El Legado Andalusí, Madrid.

Manuel, Acien Almansa.(1992) : Sobre La Funcion DE los Huusun el Sur de Al-andalus,Granada.

Benevenisti, M. (1970): *The Crusaders in The Holy Land*. Keter Publishing House, Ltd, Jerusalem.

Nicolle, M. (2004): *Crusader Castles in the Holy Land*. Ospery Publishing, USA.

Ellenblum, R. (1998): *Frankish Rural Settlement in the latin Kingdom of Jerusalem*. Cambridge University, The New Encyclopedia Britannica, Ed. Philip. W. Goetz., Vol. II., 1990, p.936, MONES,

Plames, P. C. (1975): *History of Archiecturem*. London.

Paul, D. (1939*): La defense Du Rotaume De Jerusalem*. II, Paris.

Saewulf, S. (1892): *Pilgrimage to Jerusalem The Holy Land*. Trans. By Canon, Brownlow, London, Vol. IV.

Thompson, J. W. (1959): *Social and Economic History of the Middle Age*. Vol. I, London.

Theoderich. (1996): *Description of the holy Land*. Trans by Aubrey Stewart, Vol. v, London.